موقعة ناڤارين البحرية

٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣هـ ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م

للدكتور علي مظهر

— ٢ —

بعد المعركة

اقلعت الاساطيل المصرية والعثمانية في اوائل اغسطس سنة ١٨٢٧ بقيادة امير البحر محرم بك فاما الاسطول المصري فكان مكوناً من ثماني عشرة سفينة حربية والعثماني من ست عشرة سفينة واربع سفن تونسية وجزائرية وست حراقات واربعين مركباً لنقل الجنود وعددهم ٤٦٠٠ جندي. وكان امير البحر التركي هو جنكل اوغلي طاهر باشا وقد عزل خسرو باشا من البحرية لخلاف وقع بينه وبين ابرهيم باشا . وتعين عزت باشا مكانه وكان ذلك خلال الحركات العسكرية البرية والبحرية التي انتهت باسترداد بلاد موره . ووصلت السفن العثمانية الى ميناء ناڤارين في ١٨ شوال سنة ١٢٤٢ هـ وكانت مؤلفة من ٣٧ سفينة على رواية سرهنك باشا (ج ٢ ص ٢٤٠) والاسطول المصري كان ١٦ سفينة بقيادة امير البحر محرم بك بعد تذر واصبحت السفن التركية والمصرية والتونسية والجزائرية ٥٢ سفينة كلها بميناء ناڤارين بقيادة ابرهيم باشا وكان عدد مدافعها ١٥٨٨ مدفعاً وكان عدد سفن الدول المتحالفة الاخرى ٢٦ سفينة كبيرة تحمل ١٢٦٦ مدفعاً

على انه يجدر بنا ان نشير الى بحث لسمو الامير العلامة الجليل عمر طوسون عن عهد محمد علي ذكر فيه ان سفن مصر الحربية التي اشتركت في حرب موره كانت اربعاً وثلاثين قطعة غير سفن النقل التي بلغت اربعاً واربعين وذكر انه لم يعد منها غير ثمان وثلاثين قطعة منها احدى وعشرون سفينة نقل وسبع عشرة سفينة حربية ما بين فرقاطة وقرويت واريق

وهذه المعلومات منقولة من كتاب وضعه سموه يسمى (صفحة من تاريخ مصر في عهد محمد علي) ولعل سموه يسجل بنشره خدمة للتاريخ

وتولى ابرهيم باشا القيادة العامة لكل القوات البرية والبحرية. واستعد لمهاجمة جزيرة (هيدرا) بحراً وشمال (مورە) براً. واتخذت اساطيل الدول المتحدة مكانها بين جزيرتي (هيدرا) و(ترميا) وتجسس قائد الاساطيل المتحدة امير البحر كودرنجتون عن اخبار السفن العثمانية والمصرية لمنعهما من الوصول الى سواحل اليونان وانزال الامدادات الى البر. ولكن تلك السفن المشار اليها كانت قد وصلت الى ثغر (ناڤارين) من دون ان تشعر بها سفن الاساطيل المتحدة. ثم لها ما ارادت من دخول الى الميناء وانزال الرجال والمؤن والذخائر. ويجدر بنا ان نشير الى ما كان يبدو من تباين كبير وفرق واضح بين السفن المصرية والسفن العثمانية فكانت الاولى احسن نظاماً وترتيباً واجود اسلحة. وكانت تبدو السفن المصرية في حالة جيدة جداً بشهادة من رآها ومنهم الكابتن فيلوز احد ضباط الاسطول الانجليزي عند ما كان يستطلع اخبار اساطيل اعدائه (عبد الرحمن بك الرافعي في عصر محمد علي ص ٢١٦)

وكان وصول الاسطول الانجليزي امام ناڤارين يوم ١٢ سبتمبر والفرنسي يوم ٢٩ منه والروسي في اوائل اكتوبر

وارسل كودرنجتون الى ابرهيم باشا رسولاً يوم ١٩ سبتمبر ١٨٢٧ يبلغه ما تمّ عليه رأي الحلفاء في لندن من وقف القتال في البر والبحر. وقال له ان اساطيلهم جاءت لمنع وصول السفن الحربية والامدادات البرية الى اليونان وجزرها. وقابل امير البحر (ريني) الفرنسي عند حضوره لمياه اليونان ابرهيم باشا. وكرر على مسامعه مطالب الحلفاء ثم رجع فقابله هو ومعه كودرنجتون من قبيل الارهاب والتهديد ليعود بمسطوله ورجاله الى الاسكندرية. وقابل البطل ابرهيم باشا التهديد بما عهد فيه من رباطة جأش وثبات. وقال لهما في جوابه انه سيرسل الى والده بمصر وإلى الباب العالي (حكومة تركيا باستنبول حينئذٍ) لاخذ رأيهما وتلقي التعليمات منهما. وانه يتعهد ببقاء الاسطول في ناڤارين الى وصول تلك الاوامر والتعليمات

ويؤثر عن ابرهيم باشا قوله لامير البحر الفرنسي وهو بحادثه (انكم تطلبون مني وقف كل حركات القتال بينما تتركون الاروام يفعلون ما شاءوا. وهذا ليس من الانصاف في شيء). وقد كان ما قاله هو الواقع. ولو أنه سار الى جزيرة (هيدرا) لكان القضاء المبرم والاخير في ذلك على آخر معقل لثوار اليونان. ولكن الحلفاء كانت تأبى ذلك. فبينما كانت الهدنة الوقتية معقودة بين ابراهيم باشا والاساطيل المتحدة كان اليونانيون يقومون بحركات عدائية في خليج كورنثوس. وازمعوا مهاجمة (پاتراس) شمالي مورة بمساعدة الحلفاء الذين تطوعوا لخدمتهم بأساطيلهم وقواتهم مع ان الجيش المصري كان يحتل تلك المناطق. ولم تقد بلاغات ابراهيم باشا التي ارسلها الى قائد الاساطيل المتحدة عن ذلك. فرأى ابراهيم باشا ان يمد (پاتراس). وسار اليها بحراً في بعض

السفن البحرية . فثارت ثائرة الحلفاء وعدوا ذلك منافياً للهدنة مع ان ابراهيم باشا تعهد بعدم مهاجمة جزيرة (هيدرا) فقط . ولم يكن هناك ما يمنعه من انجاد الجنود المصرية المسكرة في (مورة) وان يدفع عنها اذى قوم يريدون بها شراً بمعاونة حلفائهم المتطوعين لخدمتهم ولا نالتهم استقلالهم . وارسل كورنجتون سفنه فتعقبت السفن المصرية ولحقت بها تجاه رأس (پاپاس) شمالي مورة وهددتها بالحرب اذا لم ترجع فاضطرت الى العودة الى ناڤارين

واوصى محمد علي ابنه ابراهيم بعدم التحرش بأساطيل الحلفاء لانه كان متأكداً من قواتها. واوصاه في خطاب اليه بعدم الاصطدام مع الدول خوفاً على الاسطول المصري . واخبره بأنه سيرسل اليه تعليماته النهائية اذا جاءه الرد من الباب العالي . فرأى ابراهيم باشا ان ينفذ وصية ابيه اليه . والتزم في ناڤارين خطة الدفاع سيما وقد كان يعلم ما كانت عليه الاساطيل المتحدة من القوة لما اتصفت به من نظام وما كان لسفنها من قوة سلاح ومدافع شديدة الفتك بعيدة المرمى وما كان لامرائها وضباطها من مرانة على ركوب البحر وكفاءة وعلم . ولم يتبع الحلفاء خطة الدفاع بل رأت انجلترا القضاء على الاسطول المصري والعثماني . واوعزت بذلك الى الحلفاء لان انجلترا كانت تخشى زيادة قوة الاسطول المصري يوماً عن يوم . وهي كانت تبغي دوام السيادة على البحر الابيض المتوسط . فتنتهز الفرصة المسانحة لاضعاف مصر في بكتها في اسطولها الناشيء ولتحول دون قوة مصر البحرية والبرية ايضاً

وزحف ابراهيم باشا بقوة من جنده داخل مورة لانجاد الحاميات المصرية التي شاغبها الثوار . ولكنه اوصى امير البحر محرم بك قائد الاسطول المصري وامير البحر طاهر باشا قائد الاسطول التركي العثماني بعدم التحرش بأساطيل الدول وان يتبعا المودة والمجاملة . ولكن قواد الاساطيل المتحدة المتحالفة ارسلوا اليه انذاراً بعد مبارحته ناڤارين لانه في زعمهم نقض الهدنة وأنه وحده يتحمل عواقب ذلك العمل الخطيرة وحمل رسولهم الانذار الى ناڤارين قبل يوم الموقعة بيومين . ولما لم يجد الرسول ابراهيم باشا عاد برسالة التهديد الى كودرنجتون فاجتمع قواد الاساطيل . واتفقوا على ادخال اساطيلهم الى ميناء ناڤارين بقصد التهديد والتظاهر

***

وكانت سفن مصر والسفن العثمانية داخل الميناء في ثلاثة صفوف متوازية تقريباً كل صف في شكل نصف دائرة يمتد طرفاها من ناڤارين الجديدة الواقعة على عين البوغاز الى جزيرة اسفاختريا التي تحجب عن الميناء امواج البحر . وكانت السفن الكبيرة والفرقاطات في الصف الاول . ويليها سفن الكورفيت ثم سفن الاريق وغيرها بعدها في الصف الثالث

وكانت بناڤارين استحكامات لتحمي مدخل الميناء كما وضعت بطاريات من المدافع في طرف

جزيرة اسفاكتريا مع مساعدة سفن خفيفة من الحراقات . وهي المراكب التي تشعل فيها النيران فتندفع وسط سفن الاعداء لتحرقها بنارها

وفي يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٨٢٧ ارسل امير البحر ريني الفرنسي يدعو فيه الضباط الفرنسيين الذين استخدمهم محمد علي لتنظيم بحريته لكي ينسحبوا من الاسطول المصري حتى لا يحاربوا فرنسيين مثلهم فلبوا الدعوة واستأذنوا قائد الاسطول المصري محرم بك فأذن لهم . وتركوا الاسطول الذي كانوا فيه يوم ١٨ اكتوبر اعني يوم التهديد من قواد السفن المتحالفة . وفي ذلك عبرة لمن يريد ان يعتبر وان لا يعتمد في المهمات الا على اهل البلاد مع الانتفاع بمعارف الاجانب واستخدامهم الى حد معقول محدود

وجمع امير البحر الانجليزي قباطين الحلفاء صباح يوم التهديد على ظهر سفينته (آسيا) ليصدر اليهم التعليمات فيما يجب عمله اذا بدأ القتال . ويظهر انهم كانوا يريدون تنفيذ خطة الغدر بالاساطيل المصرية والعثمانية في ذلك اليوم لولا الريح التي لم تساعدهم يومها على دخول البوغاز وتنفيذ مؤامرتهم فانتظروا الى ثاني يوم فان سفن الاساطيل المتحالفة المتحدة استعدت في الساعة العاشرة للتأهب وبدأت سفينة (آسيا) المقلة لامير البحر الانجليزي عند الظهر تتجه على يمين من الخليج تحيط بها بقية الاسطول الانجليزي وفي اثره الاسطول الفرنسي والروسي

وفي منتصف الساعة الثانية بعد الظهر اصدر قائدهم الاكبر امره بالتأهب للقتال وعند تمام الثانية بعد الظهر اقتحمت البوغاز . فأرسل محرم بك رسولاً الى سفينة امير البحر الانجليزي يطلب منه ان يمنع سفن الدول المتحدة المتحالفة على الشر من الرسو في ناڤارين فرد كودرنجتون على الرسول رداً جافاً . وقال بأنه لم يأت ليتلقى الاوامر بل ليمليها . وظهرت عندئذ ما يبتوه من شر وعدوان واضحاً جلياً

واصطفت سفن الحلفاء على شكل نصف دائرة تقريباً امام الاسطول المصري والعثماني . واقتربت معظم السفن حتى اصبحت امام السفن المصرية والعثمانية وجهاً لوجه . وصار بعضها على مرمى المدس منها . وهذا مما يظهر نية الحلفاء واضحة وقد يرجح الخفاء

ووقفت البارجة الانجليزية دارتموث على رأس الصف لتعطيل عمل الحراقات المصرية الراسية في مدخل الميناء . وطلب قبطانها الى احدى هذه الحراقات ان يغادرها بحارتها وجنودها او ان تنسحب من مواقعها . وذهب رسول الانجليز في قارب مسلح الى السفينة المصرية متحدياً للقتال . ويقول بعض مؤرخي الحلفاء يومئذٍ ان رصاصة اطلقت من السفينة المصرية فأصابت جندياً من الحلفاء فكان القتال . وسواء صح ذلك أم لم يصح فان اساطيل الدول المتحدة جاءت تتحدى وجاءت لتنفيذ خطة معينة وهي القضاء على الاساطيل المصرية والعثمانية غيلة وغدراً .

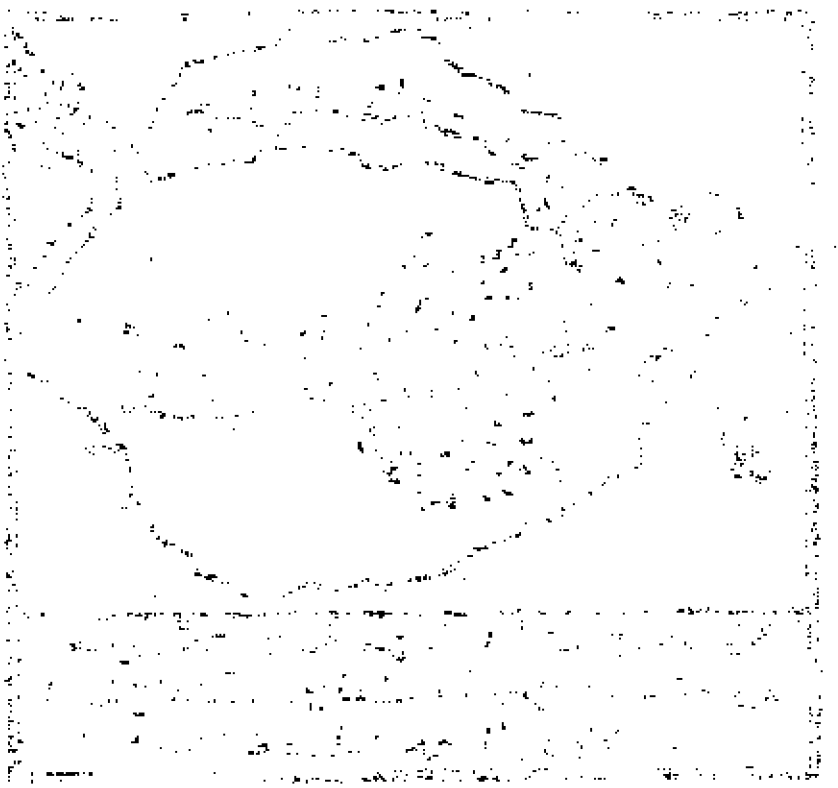

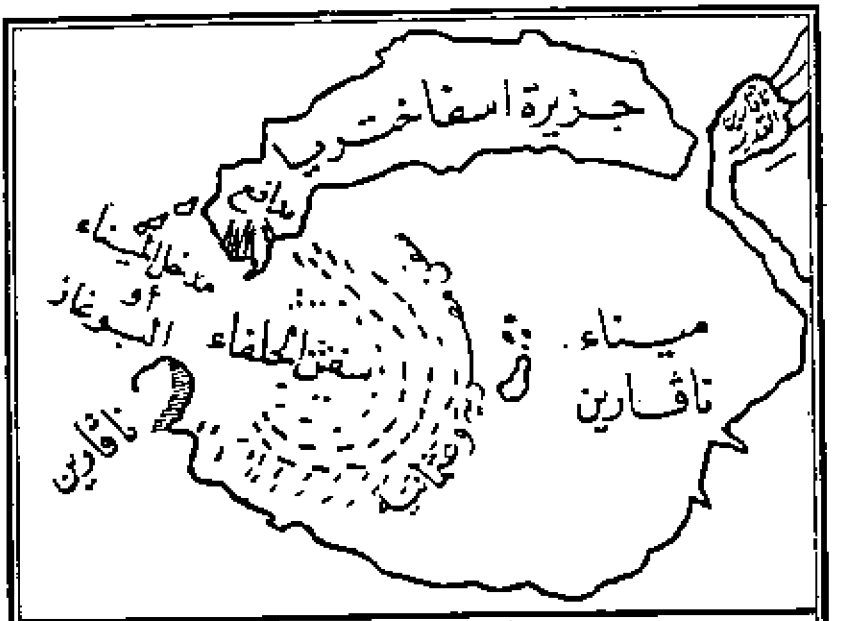

صورة تقريبية لمعركة ناڤارين البحرية
السفن المصرية والعثمانية يرمز إليها بخطوط
وسفن الحلفاء يرمز اليها بنقط

ولاسيما اذا عرفنا أن سفن الحلفاء على قلتها كانت ارجح . فقد كان لديهم عشر بوارج كبيرة مقابل ثلاث عند المصريين والاتراك وكانت سفن الحلفاء المتحدين اشد بأساً واقوى سلاحاً واكثر استعداداً وارقى قيادة من سفن اعدائهم لحداثة عهد المصريين وقلة بركوب البحار . ولو انهم ابدوا من ضروب البسالة والاقدام والقيام بواجبهم ما يشكرون عليه . ولم يسلموا بأية سفينة من سفنهم ولكنهم كانوا داخل الميناء في مكان ضيق لا يسهل عليهم فيه الحركة

وبدأ اطلاق النيران من اساطيل الدول المتحدة على الاساطيل المصرية والعثمانية ، في منتصف الساعة الثالثة بعد الظهر . واستمر القتال الى الخامسة تقريباً . وتجاوبت النيران والاساطيل الضرب . وعلا الدخان . وكان المنظر رهيباً من اشتعال النيران في البراكب وغرق هذه السفن في المياه وفتك الانسان بأخيه الانسان . واستمر القتال الى الخامسة مساء تقريباً . وكانت النهاية محزنة . فقد غرق كثير من السفن المصرية والعثمانية . وتلف بعضها . وجنح ما بقي منها الى الشاطىء . ولم يسلمها بحارتها للاعداء فأحرقوها وبلغ عدد قتلى المصريين والعثمانيين ثلاثة آلاف وخسر الحلفاء ١٤٠ قتيلاً و٣٠٠ جريح (عبد الرحمن بك الرافعي في عصر محمد علي ص ٢٢٤)

كل ذلك يحدث من دون سابقة اعلان حرب من جانب الحلفاء فكانت لية الندر مبيتة . ونفذت يوم ٢٩ ربيع اول سنة ١٢٤٣ هـ (يوافق ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٧ م)

ودليل الندر ان ابرهيم باشا وهو القائد للحملة على موره البرية والبحرية لم يشاهد موقعة نافارين . ولو انه توقع ذلك لما ترك الميدان بل لشهده كما كانت عادته في وقائعه اذ كان يشترك فيها . وكان ابرهيم مع جيشه الذاهب في داخلية بلاد موره لصيانة الحاميات المصرية التي يشن الثوار عليها الغارات . ولما بلغته نتائج الموقعة البحرية وما حل باسطوله ورجاله عاد الى نافارين . وشهد آثارها وكان حزنه شديداً . ثم انه امر باعداد بعض السفن الناجية وعوّم بعض السفن الغارقة وارسلها الى الاسكندرية . ولزم جانب الدفاع واخلى مدن موره . وامتنع بمعظم جنوده في ترى (كورون)و(مودون) حتى يأتيه امر ابيه (عبد الرحمن بك في عصر محمد علي ص٢٢٥)

واتصل تداعي الدول المتحدة بمحمد علي في مصر . وانهوه بان يسحب جيوشه وقوته من موره . وكتبوا معه اتفاقاً محرراً غاية ذي الحجة سنة ١٢٤٣ هـ (يوافق٣ اغسطس سنة١٨٢٨م) فارسل صورته الى ابنه ابرهيم باشا . فلما قرأها اغتاظ منها جداً لانها اضاعت عليه ثمرة جهاده واتعابه سدًى . وقد هددت الدول بتجريد قوات لاخلاء بلاد اليونان من القوات العثمانية والمصرية . وتكفلت انجلترا بالاعمال البحرية وتعهدت فرنسا بارسال جيش قوامه ٢٤٠٠٠ مقاتل (سرهنك باشا في حقائق الاخبار ج . ٢ ص٢٤٠) . بل ان عبد الرحمن بك الرافعي في كتابه القيم في عصر محمد علي يشير الى ان فرنسا ارسلت الى بلاد اليونان جيشاً مؤلفاً من ١٨٠٠٠ جندي

بقيادة الجنرال ميزون لاجلاء المصريين والترك عنها (ص ٢٢٥) . ونقل سرهنك باشا شروط الاتفاق عن مجموعة المعاهدات في كتابه حقائق الاخبار (ج٢ ص ٣٤٠) . ونحن ننقلها عنه وهي:—

١ — يتعهد والي مصر باعادة جميع الاسرى من يونان وغيرهم

٢ — يتعهد امير البحر الانجليزي باعادة جميع الاسرى المصريين وخلافهم مع السفن التي اخذها في الحرب

٣ — تخلي الجيوش المصرية شبه جزيرة موره في أسرع وقت وينقلها والي مصر بسفنه الى الاسكندرية

٤ — ان تكون السفن المصرية في حالة ذهابها وإيابها محفوفة بسفن فرنسا وانكلترة

٥ — لا يجبر اليونان المقيمون بمصر على تركها ما داموا غير مكرهين على الاقامة فيها وكذلك من يريد العودة مع المصريين باختياره لا يمنع من ذلك

٦ — يجوز لابراهيم باشا ان يترك في مورة عدداً من العساكر لا يزيد عن ١٢٠٠ نفر للمحافظة على مدن وفرون وناڤارين وبيزاس وكستيل اما باقي القطط الاخرى فلا بدَّ من الجلاء عنها بدون امهال

ويقول الرافعي بك عن الشرط الاول على (تحرير من بيع من اليونانيين في مصر ما يأتي:— ويذكر المستر بركر قنصل انجلترا في مصر وقتئذٍ ان عدد هؤلاء الاسرى ٥٥٠٠ وزعوا على بيوت الكبراء في الاسكندرية والقاهرة . ولما ابرم هذا الاتفاق لم يبقَ منهم الفتى سوى اربعمائة واما الباقون ففضلوا البقاء في مصر (عصر محمد علي ص ٢٢٦) . ونحن نعرف ان كثيراً منهم امتزجوا في الدم المصري بالتزاوج . ومن ذريتهم بعض الرجال والسيدات المعروفين بمصر اليوم ونجد ذكر البعض منهم سيدات ورجالاً في الاوراق التي حفظت انسابهم كانوفليات وغيرها

واصدر ابرهيم باشا أوامره باخلاء المدن اليونانية والسير الى التنور . وأقلعت بالجند السفن إلى مصر في اكتوبر سنة ١٨٢٨ . وعاد الجيش وقد فقد ثلاثين الفاً من الجنود والبحارة من قوة الحملة التي بلغت اثنين وأربعين الفاً . وبلغت نفقات الحملة ٧٧٥ الف جنيه وفقد معظم الاسطول المصري فكانت الخسارة فادحة ، ولم تنل مصر من حربها هذه فائدة مادية ما سوى ضم جزيرة كريت اليها . فقد عهد السلطان محمود إلى محمد علي بولاية تلك الجزيرة مكافأة له على خدماته في حرب موره وهذا مع ما أبداه الجيش المصري من البسالة والاقدام في تلك الحروب فكانت مرانة طيبة له في خوض المعارك عدا ما اصبح لمصر من منزلة سياسية ممتازة لها شبه استقلال فصلي عن تركيا اما بلاد اليونان فقد استقلت بذلك استقلالاً تامًّا وحافظت عليه الى اليوم

(يتبع خاتمة)